جوانب السيرة المضيئة في المدائح النـ

بقلم : الشيخ أبي الحسن الندوي

إن الملمَّ بلغات العالم وآدابها وثروتها الأدبية ومكتبتها الشعرية، والمشتغل بالدراسات الأدبية المقارنة، يعرف أن صنف المديح النبوي أو «النبويات» ثروة أدبية معنوية من أغنى الثروات الأدبية والإنتاج الشعري، وفيض القريحة ورشحاتها، وتوليد المعاني والانطلاق في عرصاتها، من بين لغات البشر المحفوظ تراثها، الباقية آثارها، وذلك لعمق تأثير البعثة المحمدية في العالم وفي الأجيال والنفوس البشرية، ولكون سيرة سيد الأنبياء وخاتمهم، معلومة ومحفوظة، متداولة متناقلة، على اختلاف الأزمنة والأمكنة، والأمم والبلاد، وأخيرا لا آخرا لتعلق قلوب هذه الأمة وارتباطها عقديا وعقليا ونفسيا وعاطفيا - بنبيها- ﷺ تعلقا لم يعرف في تاريخ الديانات وفي واقع الأمم لأي أمة بنبيها على ما عرفت من تخط للحدود الفارقة بين التوحيد والشرك وتأليهها له في بعض الأحيان، أو اعتقاد الابنية أو التبني على الأقل.

وذلك شأن المديح النبوي أو «النبويات» مع ثروة المدائح البشرية وشعر المديح في تاريخ الأدب والشعر، فإن الأول (المديح النبوي) يفوق شعر المديح والوصف وقصائد المدح والرثاء كيفا وقامة وقيمة، وذلك لأسباب نفسية واقعية، تحليلية طبيعية وعقلية، فإن الأول تقترن به العقيدة المتغلغلة في الأحشاء، المسيطرة على الأعصاب وقوى الفكر والشعور العميق بالسعادة والتوفيق، والأمل في النجاة والمغفرة في بعض الأحيان، والزلفى عند الله، والرجاء في الشفاعة، وكل ذلك كافل بإثارة المواهب الدفينة وتدفيق القريحة الخامدة، وإثارة المعاني، والحماسة البيانية، مع رقة الشعور الإنساني، فإن الشاعر إذا كان مدفوعا من داخل نفسه، مسوقا من إيمانه، متجردا من الأغراض الخسيسة والمنافع المادية، متجاوبا لقلبه وروحه، غرف من بحر لا ساحل له، واقتنص نجوما كانت فوق متناول يده.

هذا بالعكس من المدائح التي قيلت في ملك أو أمير، أو فاتح أو غني، فلقد ارتبطت به مطامع وآمال في بعض الأحيان أو مخاوف وتوجسات في أحيان أخرى، وصدرت عن اقتراح وطلب، وأملاها مقتضى الوقت ومصلحة الزمان، وشتان بين هتافات الخارج ونداء الضمير، وبين تحقيق رغبات المتملقين المقترحين أو الوصول إلى غايات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، وبين تحقيق رغبة الضمير المؤمن القاهرة (من غير عنف أو قسوة) وبين شكرواعتراف بجميل ناله هذا الشاعر من الممدوح أو أمل فيه في المستقبل، وبين شكر واعتراف - بكل جارحة من جوارحه- بما أنعم الله به عليه من طريق هذا النبي من نعمة الإيمان وكرامة الإنسان، ولم يزل ولا يزال بين الجمال والكمال وبين الإشادة به والتغني والاهتزاز لهما داخليا، والإعلان لهما خارجيا، صلة قوية عميقة خالدة، وتفاهم - من غير مخطط أو مؤامرة مصطنعة مدبرة- فأينما كان الجمال والكمال الساحران سحرا حلالا، وأينما كان الفضل والإحسان - من غير عوض أو أمل في مردود- كان الشعر البليغ والمديح الرقيق والبيان الساحر، والأدب الخالد، وذلك هو الباعث الأساسي الأقوى على وجود الشعر الذي طربت له الآذان وصفق له الزمان، ونقل الإنسان من عالم الهموم والأحزان إلى عالم فسيح تهب فيه نفحات الإيمان والوجدان.

> ☆ المديح النبوي يفوق شعر المديح والوصف وقصائد المدح والرثاء كيفا وقامة وقيمة، وذلك لأسباب نفسية واقعية، تحليلية طبيعية وعقلية

ومن الفوارق الكبيرة بين شعر المديح العام وشعر المديح النبوي والنبويات، أن انطباع شاعر المديح لممدوحه وتعبيره عن مظاهر عظمته ومحاسنه، وحبه لمن يرثيه من الملوك والأجواد والشجعان والفاتحين والقادة والنابغين من الحكام أو العلماء والصالحين يبقى محصورا في نطاق حياته في حد ذاته، لا شأن له ولا دافع إليه بعد وفاته أو بعد ما انتهى هذا الشاعر الراثي من رثائه، ولا شأن له ببلده الذي ولد فيه أو مات فيه ودفن وقضى فيه حياته وعاش، فقد كان هذا الممدوح أو المرثي بشرا من البشر كانت كل الفضائل التي امتاز بها مقرونة مرتبطة بذاته وحياته، انتهت بحياته، ولم يكن لبلده ومولده ومهجره

...بوية الفارسية والأردية

دور في تاريخ تغير مسيرة الإنسانية وإنقاذ البشرية ولم تقترن ذكريات الدعوة والإصلاح والجهادوالكفاح، والإيثار على النفس والفداء، والأخوة الصادقة والإنسانية السامية، وآيات البطولة والاستماتة في سبيل الله والشوق إلى الجنة والحنين إلى الشهادة وإيثار النبي ﷺ على النفس والأولاد، وبالعكس قد خص الله بلدي الرسول بعبير الإيمان وأريج الحب والحنان، فأحدهما مولد الرسول ومبعثه، وثانيهما مهجره ومدفنه، لذلك كان الحنين إلى هذين البلدين والحرص على الوصول إليهما مشيا على الرأس والعين، وكنس أرضهما بالأهداف وغسلهما بالدموع، أمنية العشاق والمتيمين، وأصحاب النبويات والشوقيات من الشعراء والناظمين.

وكان ذلك أبرز وأقوى عنصر شعري في هذا الصنف في الشعر الفارسي والأردي لبعد هذه البيئات التي نبغ فيها هؤلاء الشعراء - عن مركز الإسلام ومدينتي الرسول عليه الصلاة والسلام، لذلك جاء في شعر شعراء إيران وشبه القارة الهندية من شعر الحنين والشوق والشعور بالبعد والهجران، وشوق الوصول إلى البلدين الطيبين المباركين على جناح الشوق والحب، كما يقول الشاعر العربي في ممدوح بعيد غائب عنه:

فيا غائبا لو وجدنا له
سبيلا مشينا على الأرؤس
على ذلك الوجه مني السلام
ولا أوحش الله من مؤنسي

ويمكن أن يقال بكل ثقة وبينة: إن الشعر الذي قيل في اللغة الفارسية والأردية في الحنين إلى المدينة المنورة وتمثيلها في المخيلة، وتصوير وصول الشاعر إلى أرضها - إذا

قدرت له هذه السعادة - وسروره بذلك واعتداده بهذه الكرامة، وانتهازه لهذه الفرصة التي لم تتحقق لكثير من الأولياء الكبار وعباد الله الأبرار، ويمكن أن يعتبر من أرق الشعر العاطفي وأقواه في الشعر العالمي، فإنه لا يزال يثير الأشواق، ويدمع الآماق، وينزل إلى الأعماق، ويثير الكوامن في النفوس.

إن الحديث عن مكانة المديح النبوي أو النبويات في الشعر العالمي واستعراضه بوجه عام - مهما كان بإيجاز واختصار، لا يتسع له هذا البحث القصير- بل يحتاج إلى كتاب أو سلسلة كتب. وقد تكلم كاتب هذه السطور في الموضوع بإيجاز في كتابه : «الطريق إلى المدينة المنورة» في مقاله: «شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم»(ص٩٧-١٢٠)، ولكني أحدد موضوعي في عنوان «جوانب السيرة المضيئة، في المدائح النبوية الفارسية والأردية في هذه المناسبة الكريمة الطيبة من جلسات الرابطة العالمية للأدب الإسلامي المنعقدة في مدينة «أورنك آباد» البلد الإسلامي الذي قضى فيه الأمبراطور المغولي (أورنك زيب) المجاهد في سبيل الله، المحب لرسول الله، المطبق لشريعته في مملكته الواسعة، المدينة التي قضى فيها شطرا من عمره، وبوفاته تزعزت الإمبراطورية المغولية الإسلامية الأخيرة، فهي تستحق أن تسمى غرناطة الهند، وكانت مدفنه.

وقد ازداد شعر المديح بتناوله جوانب السيرة قيمة وإفادة، وقد كانت لفتات تاريخية تضيء جوانب السيرة وتعرض حقائق تاريخية في بلاغة وإيجاز، يقصر عنها التاريخ المطول مع قيمته العلمية - ويترك في نفس القارئ انطباعات نفسية عميقة غلابة، ليست في متناول المؤرخين المسهبين، ونختار في عرض هذه النماذج اللغتين الفارسية والأردية،اللتين تزخر فيهما هذه الثروة، واللتين كان الناطقون بهما أكثر حاجة إلى هذه الإيضاءات، وتلخيص التاريخ الطويل المشرق في أبيات معدودة ولفظ قليل ومعنى عميق.

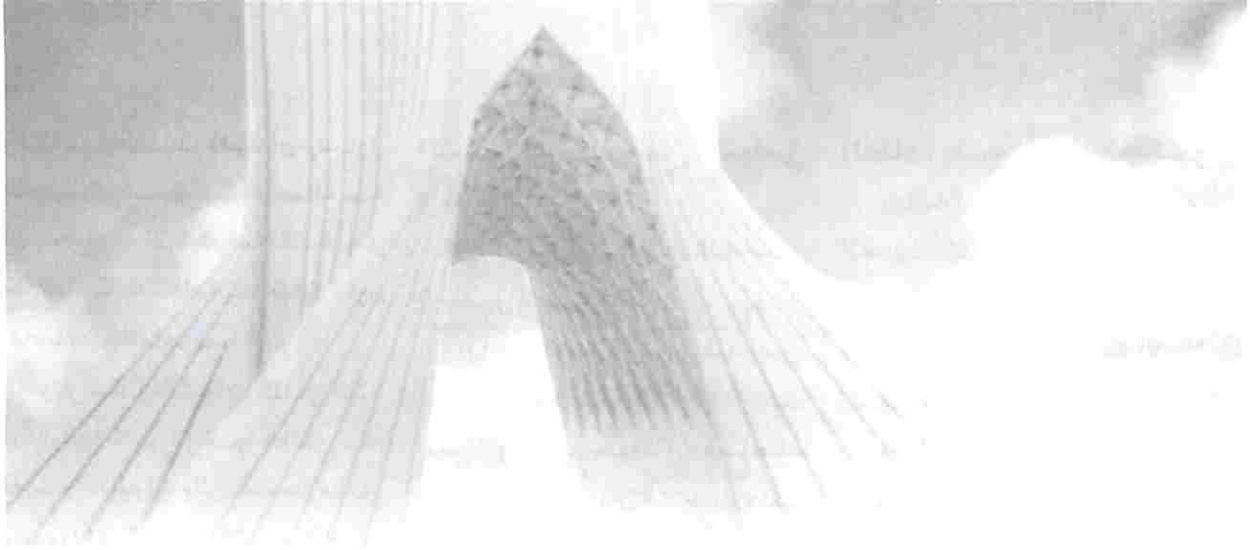

سعدي الشيرازي والمديح النبوي

ونعرض من هذه النماذج مع رعاية الأدوار والعهود. ونبدأ بالشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي (المتوفى ٦٩١هـ) ونبدأ بشعره الذي معناه:

«إن اليتيم الذي نشأ أميا وعاش أميا ولم يقرأ القرآن في كتاب، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوب كثيرة فتفقد قيمتها وحيويتها، وينشئ مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان، ومنهل كل رائد وظمآن.

إنه لغز من ألغاز التاريخ أن الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنساني والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشري، نبعتا من نبي أمي، وإن ارتباط هذه الحركة العلمية وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة التي كانت هذه الأمة حاملة لواءها بهذه الأمية، يثير تساؤلا تاريخيا يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابة مقنعة عليه، فإن اليتيم الذي لم يتلقن مبادئ العلم، استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان وجعلها لاتغني غناء ولا تحمل معنى».

ولكن المرأ قد يفهم من هذا البيت أن معجزة النبي ﷺ في هذا الصدد كانت سلبية حيث إنه قد نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجردت عن رسالتها ودورها الإيجابي، وبدأت تمثل دور التضليل وتنشر الأباطيل، لكن الواقع أن هذه المعجزة كانت إيجابية بناءة أكثر من أن تكون سلبية، إنه نسخ ذخيرة كتب محدودة لكنه حبا الإنسانية مكتبات واسعة زاخرة ينقطع نظيرها في تاريخ الأمم.

لقد انبثق من النبوة المحمدية وتعاليمها الحماسة العلمية والتفاني في سبيل العلم وانطلقت حركة علمية عالمية خالدة، مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين[1].

ونكتفي هنا بشهادة لباحث غربي كبير ومؤرخ فرنسي شهير، وهو الدكتور غوستاف لوبون، يقول في كتابه المشهور «حضارة العرب»:

« والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هناك أمم تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روى (بنيامين التطبلي المتوفى ١١٧٣م) أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة على جامعات مشتملة على مختبرات و مراصد ومكتبات غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في أسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب، منها أربعة و أربعون مجلدا من الفهارس، كما روى مؤرخو العرب،

وقد قيل بسبب ذلك أن (شارل الحكيم) لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصا بعلم اللاهوت»[٢].

ويلي سعدي الشيرازي شاعر الهند بالفارسية الأمير (خسرو) الذي سلم له شعراء إيران بالزعامة والإمامة، وشهدوا له بالإجادة والإبداع في الشعر الفارسي، يقول في مقطوعة شعرية:

«إن أنفاس النبي ﷺ وأخلاقه قد نفخت الحياة في العرب الذين كانوا في احتضار، وأطفأت في وقت واحد شعلة أبي لهب[٣] الوهاجة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس، إنه وصل في خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم[٤]، وفي جولة من العالم المادي إلى العالم الروحي».

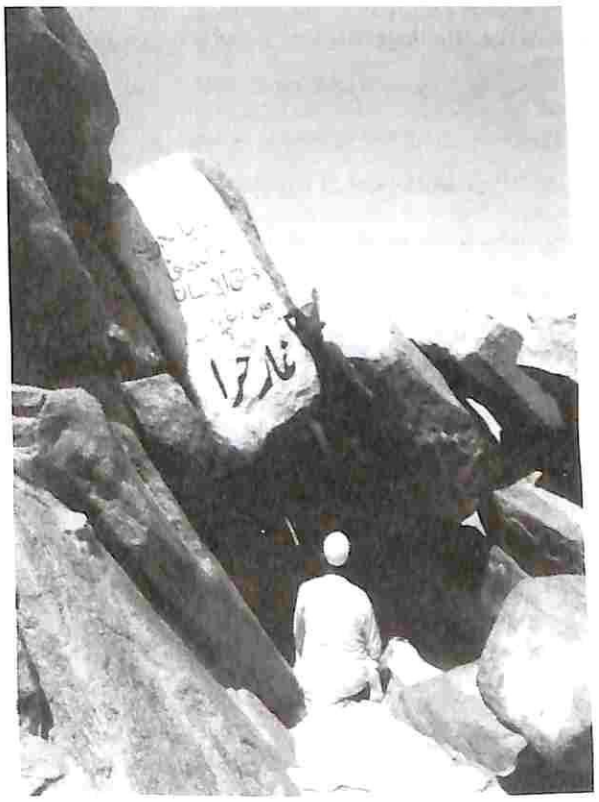

الشاعر عبدالرحمن الجامي والمديح النبوي

ويقول مولانا عبدالرحمن الجامي (المتوفى ٨٩٨هـ):

«يا من نسبه عربي ولقبه أمي، لقد دان بولائك وخضع لسيادتك العرب والعجم سواء، إن فصاحتك استأسرت العرب، وإن ملاحتك ملكت قلوب العجم، ما ضرك أن لا تقرأ ولا تكتب، فبفضل جهودك وبعثتك تعلم الأميون ونبغ الجاهلون، بك ابيضت صحيفة الأعمال وأشرق نورك في الظلمات، فلا ضير أن لا تخط سوادا على بياض أو تضم سوادا إلى سواد».

يقول أسد الله خان (غالب) الدهلوي أشهر شعراء أردو الغزليين وأحظاهم بالقبول (المتوفى ١٢٨٥هـ):

«إن بنانه لم يمسك القلم، لكنه سطر ما عجزت عنه أقلام التاريخ، ما وضع قدمه على الصحراء إلا وتحولت إلى جنة خضراء، وما تكلم مع كافر إلا حوله مسلما مؤمنا يؤمن برب الأرض والسماء، أنار الدنيا بنور الدين، وأنقذ المؤمنين من عذاب رب العالمين ... عاكف في المحراب وقلبه معلق بخلق الله».

ألطاف حسين والمديح النبوي

ويليه زعيم الشعر الإسلامي الحديث الشيخ ألطاف حسين الملقب في شعره بـ(حالي المتوفى ١٣٣٣هـ) صاحب المنظومة أو الملحمة الإسلامية المشهورة المقبولة:

«نزل من غار حراء وفي يده إكسير من السماء، حول التراب تبرا، والحصى درا وجوهرا، أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون، فأحدث فيها ثورة جذرية انقلبت بها أوضاعها، وتغير بها مجرى التاريخ... إن الحجر الذي رفضه كل بناء وزهد فيه كل معمار، تناوله بيده الكريمة، وجعله حجر الزاوية، لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره، وشرق وغرب رعدها وبرقها، فبينما رعدت على نهر (تاجه) في أسبانيا أمطرت على نهر (كنج) في شبه القارة الهندية، لقد أحيا فيها مزرعة الإنسانية القاحلة، وعم برُّها البر والبحر، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ونور وسناء إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية».

الشاعر حفيظ الجالندهري والمديح النبوي

ويقول الشاعر حفيظ الجالندهري صاحب الملحمة الشهيرة بـ (شاهنامة إسلام):

«إنه رد إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها، وإلى أفراد النوع الإنساني حقهم في الحياة ونكس الباطل، وقلب

عروش الملوك الجبابرة، رفع رأس كل إنسان صابر، وشرف قدر الأجير، وأهان المثري المستأثر، لقد كان الفقر فخره، ولكن كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه، إنه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها، فصلوات الله عليك يا من كان كسره معجزة وجبره معجزة».

محمد إقبال والمديح النبوي

نختم هذا الباب بنموذجين من شعر شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال، فهو مسك الختام وخير ما نختم به الكلام. يقول الدكتور محمد إقبال:

«إن قلب المسلم عامر بحب المصطفى ﷺ، وهو أصل شرفنا ومصدر فخرنا في هذا العالم، إن هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصير، إن هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وجدت أمة، ووجد دستور، ووجدت دولة، إذا كان في الصلاة فعيناه تنهملان دمعا، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دما.

لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين - بأبي هو وأمي- لم تلد مثله أم، ولم تنجب مثله الإنسانية، افتتح في العالم دورا جديدا، وأطلع فجرا

☆ شعر المديح النبوي في اللغة الفارسية والأردية من أرق الشعر العاطفي وأقواه في الشعر العالمي.

جديدا، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع، يأكل مع مولاه على خوان واحدة، جاءته بنت حاتم أسيرة مقيدة سافرة الوجه، خجلة مطرقة رأسها، فاستحيا النبي ﷺ وألقى عليها رداءه، نحن أعرى من السيدة الطائية، نحن عراة أمام أمم العالم.

لطفه وقهره كله رحمة، هذا بأعدائه وذاك بأوليائه، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة، وقال : (لا تثريب عليكم اليوم) نحن المسلمين من الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة، نحن غيض من فيض واحد، نحن أزهار كثيرة العدد متحدة الطيب والرائحة، لم لا أحبه؟ ولا أحن إليه وأنا إنسان؟، وقد بكى لفراقه الجذع، وحنت إليه سارية المسجد، إن تربة المدينة أحب إليّ من العالم كله. أنعم بمدينة فيها الحبيب».

ويقول في قصيدة أخرى:

«اكتسبت صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة، وأنبتت زهرة يانعة، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مدينا لأمسه.

لقد وضع قلبا نابضا خفاقا في جسد الإنسان البارد، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كل طاغوت، وحطم كل صنم، وأورق كل غصن يابس وأزهر وأثمر، إنه روح معركة بدر وحنين، وإنه مربي الصديق والفاروق والحسين.

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب، واجتمع بهما العلم والحكمة والدين والشرع والإدارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور.

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب» ■

الهوامش:

(١) يرجع لمعرفة هذه المساحات ولمعرفة التنوع والتفنن في الموضوعات إلى كتب وضعت في ذكر المؤلفات التي ألفها علماء الإسلام في عصور وأنحاء مختلفة، والفضلاء الغربيون المستشرقون في العصر الأخير، راجع هامش «الإسلام، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية للندوي»، طبع مكتبة الصحوة، ص٨٣.

(٢) حضارة العرب، ص٤٣٤، تأليف الدكتور غوستاف لوبون، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه في مصر.

(٣) يعني به الشاعر زعيم الكفر والجاهلية وقد اتخذ شخصية أبي لهب ممثلا لهذا الاتجاه.

(٤) يشير إلى الاسراء والمعراج.